بسم الله الرحمن الرحيم

** الإجهاض الفكري..

تهاويل الباطل مؤقتة لا ثبات لها، وإنما بقاؤها في نوم الحق عنها، وحكم الحق هو الثابت بذاته، فلا يُغلب ولا تُغلب أنصاره ما داموا معتصمين به، ولذا فـ " إن المعارضات والمحاجات تُظهر ضعف الباطل وزهوقه، وتبين قوة الحق وثبوته، فالحجة تتبختر اتضاحا، والشبهة تتضاءل افتضاحا، وقد خلت سنة الكون بأن الفتن تنير الطريق لأهل الحق، وتظلمه على أهل الباطل "1.

ومن دلائل التمسك بالحق زمن الفتن خاصة: التجرد من الميل إلى الهوى، والحذر من التعصب لخلاف الهدى، لأن الواجب عند إحقاق الحق في المسائل " تجريد القلب من النفرة والميل "2 مع الاعتماد على الدلائل، فالتفكير إذا سبقه الميل والمبالغة في حسن الظن بالنفس أو غيرها، أو مجاوزة الحد في إساءته تحّول من (التفكير المنصف) إلى (التفكير الموجه)! واهتم صاحبه بمصدر الفكرة أكثر من اهتمامه بدراستها والنظر في مغزاها فضلا عن (إحكامها ومضغها)! (فيتولد عن ذلك ما اصطُلح عليه بـ (الإجهاض

الفكري 3)! وهذا الأخير يُكشَف كثيرا عند (المعارضات والمحاجات)، والواجب الحذر منه - يا رعاك الله - وذلك بأن " لا تتعجل فيما يتبين لك فتخرجه، لا سيما إذا كان هذا الشيء الذي أنت تريد أن تخرجه مخالفا لقول أكثر العلماء أو مخالفا لما تقتضيه الأدلة الأخرى الصحيحة، لأن بعض الناس يمشي مع بنيات الطريق، فتجده إذا مر بحديث – ولو كان شاذا – أخذ به، ثم قام يتكلم به بين الناس، فيظن الناس لهذا أنه أدرك من العلم ما لم يدركه غيره "4.

فالحذر الحذر من الإجهاض الفكري خاصة عند اختلاط الأوراق، وزمن النزاع والشقاق فإن " خمير الرأي خير من فطيره "5.

فبالتأني تتحقق نظرا الدلائل، وتحترق بحثا المسائل، وبالعجلة تضل الأفهام، وبعدم الإحكام تزل الأقدام، فيُفقد العلم، ويسُوء الفهم، وتَكثر الأوهام...

فاعلم - رحمك الله - أن " حازم الرأي هو الذي اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين فأحجم في موضع الإحجام رأيا وعقلا لا جبنا ولا ضعفا "6.

ومن حرم التوفيق، واستدبر الطريق، ونكلَ عن التحقيق: استروح بـ (سرعة بديهته)! فمشى وراءها دون تؤدة، واعتمد على مجرد ما يقع في نفسه بلا مراجعة مع أن "من تأنى وتتبث تهيأ له من الصواب ما لا يتهيأ لصاحب البديهة"7.

وبعضهم يظن أن السرعة****جودة وبراعة في الشرعة
وأن من أبطأ حيث سئل****عن الجواب للعلوم جهلا
وهو لأن يبطأ للصواب****خير من السرعة في الجواب
إذ قد يضل ويضل السائلا****وذاك شأن من يكون جاهلا
كذاك من يفتي بلا مراجعة****وشدة التحرير والمطالعة

ومن ثم فمن " حكم بما يهجس في نفسه ويستحسنه من غير دليل، فحكمه ظاهر الفساد، لأن ذلك حكم بالهوى، واتباع للشهوة، والأحكام مأخوذة من أدلة الشرع، لا مما يقع في النفس "8.

واعلم أنه من أهم ما يثمر الإجهاض الفكري: (التقصير في النظر العلمي) وهذا قد يقع لأرباب العلم والفقه (!) – فكيف بالذي لم يتحقق بذلك (؟!) - فإن " الذي قد يخاف على بعض العلماء، أن يكون الرجل قاصرا في درك حكم تلك المسألة، فيقول مع عدم أسباب القول، وإن كان له فيها نظر واجتهاد، أو يقصر في الاستدلال، فيقول قبل أن يبلغ النظر نهايته، مع كونه متمسكا بحجة، أو يغلب عليه عادة، أو غرض يمنعه من استيفاء النظر، لينظر فيما يعارض ما عنده، وإن كان لم يقل إلا بالاجتهاد والاستدلال، فإن الحد الذي يجب أن ينتهي إليه الاجتهاد قد لا ينضبط للمجتهد، ولهذا كان العلماء يخافون مثل هذا خشية أن لا يكون الاجتهاد المعتبر قد وجد في تلك المسألة المخصوصة "9.

ومن أسباب الإجهاض الفكري كذلك : (خلط محل النزاع بغيره) ولذا اعتبر " من المغالطة، والخلط لمحل النزاع بغيره، أن يحشوَ المناظر في البحث ما ليس منه إيهاما أن بحثه من ذلك، والحال أنه يكون بينهما من التباين ما بين الثريا والثرى، مع أن الواجب صرف الجواز إلى محل النزاع والمحاجة فيه.
وما أكثر ما يقع ذلك الحشو في كلام المتطفلين على موائد التصنيف، ومثاله مثال من يرجح قول إمام في بحث نظري بطريقه العلمي، ثم يدعي أن من مرجحاته أنه تجب موالاته في الله ومحبته فيه.
فيقال له: موالاته ومودته لا إشكال فيها وليست من موضع البحث، فلم تخلطه بغيره وتلبسه بما ليس منه تهويلا وتجسيما، وإنما البحث في كذا، فهات برهانك فيه إن كنت صادقا فيما تدعيه.
وهذه النكتة ينبغي التفطن لها، والتيقظ لمن يوارب فيها ممن يحيد عن جادة البحث تغليطا وتغريرا، وتخليطا وتنفيرا، والحق أبلج، والباطل لجلج "10.

ومن دوافع حصول الإجهاض الفكري: (الاعتقاد ثم الاستدلال) مع أن الواجب على المسلم ألا يقول حتى يقول الله ورسوله - عليه الصلاة والسلام - مصداقا لقوله تعالى:(يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله).

ولأجله كان من الفوارق بين البدعي والسني أن هذا الأخير يؤخر هواه ويجعله تبعا للأدلة الشرعية، أما البدعي فيجعل هواه حاكما على الشرع، كما قال الإمام الشاطبي - رحمه الله -:" المبتدع جعل

الهوى أول مطالبه، وأخذ الأدلة بالتبع... بخلاف غير المبتدع، فإنه إنما جعل الهداية إلى الحق أول مطالبه، وأخر هواه – إن كان _ فجعله بالتبع " 11.

واستفرغ الوسع في الاستدلال **** ثم اعتقد لا تعكسن مقالي

وما دام الواجب على من له حظ من النظر عند النزاع طلب الراجح من الأقوال أخذا بالدليل أو الإجماع فعليه الحذر من (التقليد الفاسد) الذي هو بدوره من أسباب الإجهاض الفكري فإن " المقلد راض أن يغبن عقله "12 و " التقليد لا يورث إلا بلادة "13، وهذا الذي قيل صحيح لا مرية فيه، لأن غاية ما يقوم به المقلد هو الاعتزاء إلى عالم، فيأخذ القول ولا يدري ما دليله، وهل له دليل صحيح ؟! وهل الدليل في محل الاستدلال ؟ كما لا يدري حقيقة هذا الخلاف فضلا عن تنقيحه ؟
فهذه الطريقة تورث صاحبها بلادة وجمودا في التفكير، " فإن من اعتاد الجري على أقوال لا يبالي دل عليها دليل صحيح أو ضعيف، أو لم يدل يخمد ذهنه، ولا ينهض بطلب الرقي، والاستزادة في قوة الفكر والذهن "14.

ومما يُعَوِّد على الوقوع في براثن الإجهاض الفكري : (الاعتماد على الأدلة المتشابهة وطرح الأدلة المحكمة والظاهرة)، حتى وُجد من يُضفي على الأدلة المتشابهة وصف الاستئناس على حد قول العلماء: "هذا للاستئناس لا للتأسيس"، أو "هذا للاعتضاض لا

للاعتماد"، وهو من الغرائب في مسالك النظر وميادين الترجيح التي تجعل المرء يهرول في غير المسعى، ويظن أنه يحسن صنعا (!!)

هذا مع أن أرباب الفقه والفهم عن الله تعالى " لا تزلزلهم الشبهات ولا الشهوات، لأنهم يردون المتشابه منه إلى المحكم، فيصير كله محكما ويقولون : (كل من عند ربنا) أي: وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع فسره الموضع الآخر المحكم، فحصل العلم وزال الإشكال "15.

واعلم أن الباطل المحض تنفر منه الفطر السليمة، أما (الباطل المشوب بشيء من الحق) فإنه يروج على كثير من الناس مما يبعثهم على التلبس بـ (القلق الفكري) الذي يتولد منه الإجهاض الفكري، وعليه فلا تغفل أنه " يبعد في مجاري العادات أن يبتدع أحد بدعة من غير شبهة دليل يقدح له، بل عامة البدع لا بد لصاحبها من متعلق دليل شرعي "16.

فاحذر في ميدان البحث العلمي، وفي رياض العلم الشرعي ، وعند التقرير الدعوي من (الإجهاض الفكري)، وأحكم أمرك لتنفع نفسك وغيرك فإن " الأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحَبّ الذي يوضع في الرحى، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملا وحصى وتبنا ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه

.17"

....

. 1 أنظر (تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب) للعلامة جمال الدين القاسمي رحمه الله 105.
.2مفتاح دار السعادة لابن القيم رحمه الله 1/258.
.3 ذكره الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله في حلية طالب العلم 83 في معرض تحذير الطلاب من جملة من الآفات وقد فسره رحمه الله بقوله:" إخراج الفكرة قبل نضوجها ".
.4 هذا من كلام العلامة ابن عثيمين رحمه الله عند شرحه لكلام الشيخ بكر رحمه الله، أنظر شرح الحلية 399 مع التعليق الثمين.
.5صيد الخاطر لابن الجوزي رحمه الله 126.
.6الروح لابن القيم رحمه الله 237.
.7قاله أبو عثمان الحداد رحمه الله كما في إعلام الموقعين 1/36، وقد كان الإمام سحنون رحمه الله يقول:" سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال " تنوير الحوالك 4/75، قلت: فكيف بسرعة الجواب بما خالف السنة والكتاب ونهج السلف الصالح أولي الألباب !!
.8اللمع لأبي إسحاق الشيرازي رحمه الله 67.
.9رفع الملام للإمام ابن تيمية رحمه الله 51-52.
.10تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب 88-89.
.11الاعتصام للشاطبي رحمه الله 1/103.
.12مداواة النفوس لابن حزم رحمه الله 74.

13. منهاج السنة 5/281.
14. المناظرات الفقهية للسعدي رحمه الله 37.
15. القواعد الحسان / ملحق بتيسير الكريم الرحمن 5/516.
16. الاعتصام للشاطبي رحمه الله 2/136.
17. الفوائد لابن القيم رحمه الله 308.

كتبه :
أبو أويس رشيد بن أحمد الإدريسي الحسني - عامله الله بلطفه الخفي وكرمه الوفي -